المفارقة السياقية في الطبيعة والزمان عند طالب عبدالعزيز
ديوان "طريقان على الماء، وواحد على اليابسة" أنموذجاً

الباحث حسين طرفي عليوي
جامعة خليج فارس- بوشهر- إيران
أ.م.د. سيد حيدر فرع شيرازي
جامعة خليج فارس، بوشهر - إيران
أ.م.د. رسول بلاوي
جامعة خليج فارس- بوشهر - إيران
r.ballawy@pgu.ac.ir

الملخص

المفارقة هي تعبير مغاير للمألوف، وقدأضفت جمالاً في الكتابات الأدبية لاسيما الشعر، وهناك من استطاع أن يستخدم هذه التقنيّة بصورة حديثة وبلغة مغايرة جداً، فترى الشاعر يقول شيئاً ويقصد شيئاً آخر، مما يثير التناقض والسخريّة والهزء عن طريق المراوغة اللفظيّة والخداع والورطة، إلى أن تصبح اللغة الأديّة متأرجحة بين المفارقة اللفظيّة والموقف، وبما أن المفارقة تبدو من أهمّ مقومات الشاعر العراقي طالب عبدالعزيز في نصوصه الشعريّة، لذا اخترنا ديوانه (طريقان على الماء، وواحد على اليابسة)أنموذجاً للقصائد التي حملت هذه التقنيّة، إذ وجدنا فيها المفارقة الشعرية أكثر من غيرها. يكون التركيز في هذا البحث حول محورين أساسيين وهما الطبيعة والزمان ودراستهما من منظار المفارقة السياقية مع تطبيق المباحث النظرية في هذه المحاور، نحو: التنافر البسيط ومفارقة الأحداث والمفارقة الدرامية ومفارقة خداع النفس ومفارقة الورطة؛ مع الأخذ بعين الاعتبار التقنيات الحديثة التي استعملها في نصوصه مثل الرمز والإيحاء والمفارقات اللغوية.

الكلمات المفتاحية: طالب عبدالعزيز، المفارقة، السياقية، الطبيعة، الزمان، المكان.

Abstract

Paradox is a statement of illogicality and self-contradictory expression, which has often been used by poets and writers to embellish the literary texture, specially the poems. Amongst the poets, Talib Abd-Alaziz used this technique in such modern method and completely different language that he seems articulating some words while meaning something totally different, a process that effects contradiction, raillery and mocking by means of phonetic shuffling, delusion and predicament. In such situation, we may find the literary language swing between the phonetic paradox and context. Since paradox is one of the most significant ingredients of poems of iraqui poet, Talib Abd-Alaziz, we have chosen his collection “Two paths on water and one on land” as an example which

carries this technique more than any other works of the poet. In this study, we concentrate on two principal basis: time and nature; and we will analyze them from viewpoint of contextual paradox, applying the theoretical researchers in this aspect. We will end up with simple contradiction as well as occasional, dramatic, delusional paradoxes and predicament. Also, we will have a look on other mosern techniques applied by the poet such as symbols, implications and linguistic paradoxes.

Keywords: Talib Abd-Alaziz, paradox, contextual, nature, time, space.

المقدمة

المفارقة السياقية هي مفارقة الموقف، إذ وجدنا نماذج عديدة قد استخدمها الشاعر طالب عبدالعزيز في قصائده، وشملت محاور عدة مثل التنافر البسيط ومفارقة الأحداث والمفارقة الدرامية ومفارقة خداع النفس ومفارقة الورطة، ويحاول هذا المقال أن يسلّط الضوء على هذه المحاور بالنسبة للمفارقة التي تأرجحت بين الطبيعة والزمان. والمفارقة السياقية هي غير المفارقة اللغوية والبلاغية ولم تكن في ظاهر الكلام بل في باطنه وتسمّى مفارقة الموقف لتكشف لنا كلام المخاطبين، ولم تعد تسمّى بالمفارقة إلا في العصر الحديث.

حاول الكثير من الشعراء القدامى عبر المفارقة أن ينمّقوا قصائدهم بالجماليات الشعرية واستطاعوا أن يقدّموا نصوصاً غير مألوفة كالشعر الصوفي والقصائد المكتنزة بالبلاغة القديمة، لكن المفارقة قد تطوّرت واتّسعت آفاقها، وقد تأسّست مفارقات على سياقات مختلفة وبتقنيات حديثة كالمفارقة الدرامية والسياقية وغيرها إذ لم تكن كالمفارقة اللغوية القديمة وكما تسمّى بالمفارقة على سياق أوكسي مورون أو المفارقة الدلالية والانزياحات اللغوية القديمة.

تكشف لنا المفارقة السياقية ما يكون وراء اللغة الظاهرة، ولم يكن هناك معنى مألوف على القياس القديم، وتثير قضايا فكرية غير مسبوقة، بلغة ساخرة ذات حكمة، لإرباك الأزمنة والأمكنة، وتراسل الحواس، وضياع الحضور والغياب، واعطاء رؤية جديدة عن الطبيعة وغيرها بصورة مغايرة.

المفارقة السياقية هي تتمثّل في نص غائب إذ نقرأ ما وراء الكلام وكأن صاحب المفارقة يقول شيئاً ويريد أمراً آخر وكأنها قريبة جداً للمفارقة التصويرية، مع هذا الاختلاف بأن الموقف من النص يكون مختلفاً يشمل التنافر البسيط ومفارقة الأحداث والمفارقة الدرامية ومفارقة خداع النفس ومفارقة الورطة؛ وسوف يقوم البحث عبر التطبيق أن يكشف المفارقة السياقية في قصائد طالب عبدالعزيز، عبر نماذج من صوره الشعرية التي تطرّقت إلى الطبيعة والزمان بلغة مغايرة.

تمّ اختيار هذا البحث لأهمية قصائد طالب عبدالعزيز المكتنزة بالتقنيات الحديثة وإعطاء صورة مغايرة للمنجز الشعري المعاصر الذي يكون في ساحة الأدب الآن.

أهداف البحث ومنهجيته

من أهداف البحث الأساسية هو التعرّف على الأساليب الشعرية الحديثة التي امتزجت بالتقنيات كالمفارقة القياسية عند الشاعر طالب عبدالعزيز، واكتشاف جماليات المفارقة السياقية عبر التطبيق النظري، وإعطاء صورة واضحة عن القصيدة المعاصرة المكتنزة بالتقنيات الحديثة.

أسئلة البحث وفرضياته

- ما هي المفارقة السياقية التي أدخلها طالب عبدالعزيز في قصائده؟
- كيف يتعامل طالب عبدالعزيز في نصّه الشعري مع الطبيعة والمكان؟
- ما هي التقنيات الحديثة التي أدخلها طالب عبدالعزيز، بصالح نصّه الشعري؟

دراسات سابقة

ـ هناك مقالة بعنوان المفارقة التصويرية في الشعر السياسي عند نزار قباني لسيد عدنان أشكوري وزملائه ويحاول المقال أن يكشف لنا التناقض بين وضعين متقابلين من الواقع المعاصر أو بين معطيات التراث وركّز حول مواقف نزار قباني السياسية المفعمة بالمفارقات التصويرية وشمل مباحث عدة كالمفارقة التصويرية ذات الطرفين المعاصرين، والصور الجزئية للمفارقة التصويرية ذات الطرفين التراثي والمعاصر، أو ذات الطرفين التراثيين، وتوصّل هذا البحث إلى نتائج عدة منها أن نزار قباني لجأ إلى الغموض حين ساءت الأوضاع السياسية ولم يفصح بصورة مباشرة عن أحاسيسه، مما ساعد هذا النوع من الشعر في تقوية لغته الشعرية واستبعادها عن الكلام العادي. بالرغم من أن هذه الدراسة تكون مختلفة عن دراستنا ولم نقتبس منها شيئاً لكنّها تناولت المفارقة غير اللفظية في النص الشعري وتكون نموذجاً بارزاً للدراسات الحديثة التي شملت المفارقة التصويرية بغض النظر عن الزوايا العديدة التي لم يتطرّق إليها المقال كالمفارقات السياقية التي تبيّن موقف الشاعر المغاير بالنسبة لقضايا الحياة.

-دراسة أخرى بعنوان شعرية المفارقة بين الإبداع والتلقّي لنعيمة سعدية بجامعة محمد خيضر بالجزائر وقد تطرّقت إلى أنواع المفارقات برؤية أدبية وناقشت الشعرية بين الذات المبدعة والذات المتلقيّة وحاولت الإجابة عن هذا السؤال بأن شعرية المفارقة هل هي سلطة إبداع أم تلقّي؟ وساعدنا هذا المقال لنكتشف أهمّ المصادر التي تطرّقت إلى المفارقة بأنواعها المختلفة.

-هناك مقال ساعدنا كثيرًا لنبيّن من خلاله محاور المفارقة السياقية أو مفارقة الموقف تحت عنوان المفارقة في الشعر العربي الحديث بين سلطة الإبداع ومرجعية التنظير لصليحة سبقاق بجامعة سطيف الجزائر، إذ قامت بمناقشة الموضوع على غرار التنظير والتطبيق وأعطت نماذج مميّزة عن المفارقات.

-هناك مقالات عديدة كتبت حول قصائد طالب عبدالعزيز ومعظمها لم تتطرّق إلى موضوع هذا المقال، ما عدا مقال واحد نشر في صحيفة المثقّف بعنوان الشعرية الزمكانية في قصيدة طالب عبدالعزيز لحيدر عبد الرضا وأكّد من خلال مقاله بأن طالب عبدالعزيز أسّس في نصّه هوية المكان الذهني والمكانية والزمانية في قصائده

بمثابة المركز والقصد والدلالة، في منطقة الواقعة الصورية والتشكيلية التي تتجذّر في الإيقاع والمكان والحدث الشعري.

- وهناك رسالة جامعية لنيل درجة الماجيستير لصابرين كاظم مغتاض، بعنوان التشكيل الفني في شعر طالب عبد العزيز، جامعة ذي قار، وقد تطرّقت إلى التشكيل وطرق الكتابة الشكلانية في شعر طالب عبدالعزيز. فكما يتّضح من هذه الدراسات، لم يعالج حتى الآن موضوع هذا البحث وهو يتّسم بالجدة.

الشاعر حياته وآثاره

وُلد طالب عبد العزيز في العراق، محافظة البصرة في (أبو الخصيب) عام ١٩٥٣. يُعدّ من أهمّ الشعراء العراقيين من جيل ثمانينات القرن العشرين، في مجال كتابة قصيدة النثر، وصدرت له الكتب التالية:

١-تاريخ الأسى -شعر- بغداد – دار الشؤون الثقافية- عام ١٩٩٤م.

٢-ما لا يفضحه السراج - شعر- بيت الشعر الفلسطيني – رام الله عام، ٢٠٠١م.

٣-تاسوعاء- شعر- اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين- صنعاء- عام ٢٠٠٤م.

٤-الخصيبي- شعر- بغداد- دار الشؤون الثقافية- بغداد- عام ٢٠١٣م.

٥-قبل خراب البصرة- عن المؤسسة العربية في بيروت- عام ٢٠١٦م.

٦-طريقان على الماء .. واحد على اليابسة- شعر- دار مسارات بدولة الكويت- عام ٢٠١٦م.

٧-كتاب أبي الخصيب- عن مؤسسة المدى –بغداد- بيروت- عام ٢٠١٧م.

المشاركات:

- شارك في مهرجان المربد الشعري السنوي الذي تنظّمه وزارة الثقافة العراقية منذ أكثر من ٢٠ سنة.

- شارك في مؤتمر الأدباء والمثقفين العراقيين الذي نظّمته مؤسسة عبد العزيز البابطين في الكويت عام ٢٠٠٤م، بحضور أكثر من ١٥٠ شخصية عراقية.

-شارك في مهرجان الشعر العربي بصنعاء –اليمن- عام ٢٠٠٩م.

- شارك في مهرجان القرين الثقافي بدولة الكويت- عام ٢٠١٥م.

- شارك في مهرجان شعراء البحر المتوسط بمدينة سيت بفرنسا- عام ٢٠١٦م.

- يكتب عموداً ثقافياً في جريدة "بين نهرين" الثقافية الأسبوعية التي تصدر في بغداد.

- يكتب عموداً بواقع مادتين في الأسبوع لصالح جريدة المدى- بغداد.

- نُشِرت في مجلات محكمة، عدّة دراسات عن شعره كتبها أساتذة أكاديميون.

-نالت الطالبة في كلية الآداب- جامعة ذي قار- صابرين كاظم مغتاض- درجة الماجستير - عن رسالتها الموسومة (التشكيل الفني في شعر طالب عبد العزيز).

المفارقة السياقية والطبيعة والزمان

ما نقصده بالمفارقة السياقية، ليس تعاكس الدلالة كما يقول فرانك بالمر ويقصد «الكلمات ذات الدلالات المتعاكسة المتضادات»[١]، أي ليست ما يكون بين لفظ وآخر بل ما يكون في المضمون والمحتوى والصورة الكليّة للقصيدة. مفارقة الموقف «وهي ما ينطوي عليه كلام المخاطبين... فهي رغم بقاءها النوع الرئيس من المفارقة في الدراما منذ أيام آيسخيليوس حتى الوقت الحاضر، لم يطلق عليها أحد اسم المفارقة حتى حلول القرن الثامن عشر، كما أنه لا يبدو أنها قد سمّيت باسم آخر قط»[٢]. إذن تكشف لنا المفارقة السياقية ما يكون وراء اللغة الظاهرة، ولم يكن هناك معنى مألوف على القياس القديم، ونثير قضايا فكرية غير مسبوقة، بلغة ساخرة ذات حكمة، لإرباك الأزمنة والأمكنة، وتراسل الحواس، وضياع الحضور والغياب، واعطاء رؤية جديدة عن الطبيعة وغيرها بصورة مغايرة.

«إنّ المفارقة تقوم على تظاهر المرء بكونه خلاف ما هو عليه، فصاحب المفارقة قد يقول شيئاً لكنه في الحقيقة يعني شيئاً مختلفاً تماماً. وعلى الرغم من أن شعرنا القديم قد عرّف صوراً من المفارقة التصويرية، وفطن إلى الدور الذي تقوم به عملية إبراز التناقض بين النقيضين، فيتجلّى معنى كل منها في أكمل صورة، ولخّص إدراكه لهذا الدور في تلك الحكمة المشهورة: والضد يظهر حسنه الضد»[٣].

إن المفارقة تنقسم إلى قسمين رئيسيين يصعب الفصل بينهما، هما المفارقة اللفظية ومفارقة الموقف، ويحاول أن يبرز في المفارقة تضاد المخبر والمظهر «حيث نجد أن صاحب المفارقة يقول شيئاً لكنه في الواقع يريد شيئاً آخر مختلفاً تماماً، إلى أن الأمور هي على ما تبدو عليه ولا يحس أنّها حقيقة مختلفة تماماً، إذ المفارقة تطلب تضاداً أو تنافراً بين الحقيقة والمظهر، وإنّها تكون أشد وقعاً عند ما يشتدّ التضاد»[٤].

للمفارقة وظيفة هامة جداً في الكتابات الأدبية وغيرها إذ شغلت الكثير من الدارسين والباحثين فيقول فرويد: «إن المفارقة وسيلة شديدة القرب من النكتة، تحت لذة كوميدية لدى السامع تخلّصه من المكبوتات الداخلية بأداة التوازن التي تعطي الحياة توازنها أو سائرة بخط مستقيم، حينما تحمل على محمل الجدّ المفرط وتؤدّي المفارقة وظيفة إصلاحية في الأساس، فهي تشبه أداة التوازن التي تعطي للنص الأدبي بعداً جماليّاً من خلال قراءاته التي تتعدّد بحسب طبيعة القارئ»[٥].

ذكر الغربيون مفهوم المفارقة في التضاد ويقصد «الأضداد الموجودة في المفاهيم بين البشر والحيوان»[٦]، كما أنه في المفارقة علاقة لخداع المخاطب. أما الخداع فيمكن أن يبرز في النكتة والملاحة والسخرية والكلام الساخر، كالعنف الذي يقتحم الشخص المقابل؛ فطالما الشخص الراوي بحاجة إلى جمهور للضحك وإلى شخص ثالث يسمع كلامه ليعلن المتلقي عن إعجابه، فينفجر بالضحك، «وهذا الضحك هو يعتبر مفارقة أي خارجاً عن المألوف ومقابل الحركة الطبيعية إذ يتولّد لعدم الانسجام بين العلّة والنتيجة ليتمّ إلى الضحك»[٧]

تكون المفارقة كلاماً انتقاديّاً يقدّم نماذج سلبية عن الحدث أو يقدّم طريقة لخداع الرقابة وهي شكل من أشكال البلاغة إذ تشبه الاستعارة من حيث الدلالة المعنوية والذهنية، وأحياناً يكون في التقديم والتأخير مثلاً

لتلطيف الكلام يقال: «هذه ليست فكرة غبية وفيها إشارة إلى الذكاء ولو قيل: هذه ليست فكرة ذكية، لكان وضع الذكاء موضع الغباء علامة للتخفيف أو التهوين من شأن الغباء ويكون هذا التعبير تلميحياً تهكّمياً»[٨] لكي تؤدي المفارقة دورها بشكل جيّد عليها أن تقوم بأداء جيد للخداع وذلك لم يتحقّق إلا عبر المراوغة والمغافلة: «المراوغة هي المفارقة اللغوية وهي عن طريق الألفاظ المستخدمة بكل الحيل ويكون مختلفاً من بين شخص وآخر حسب المهارات اللغوية والألعاب الذهنية»[٩] «والمغافلة هي مفارقة الموقف وتتمثّل بإضفاء صفة الغفلة على الشخوص التي تنخرط في أدائها وهي وظيفة تفيد معنى الخداع»[١٠]

يحاول ميويك أن يعطي تعاريف لأنواع المفارقة للتمييز بينها للوصول إلى الموقف من ضحية المفارقة أو عن مفارقة الموقف وقسّم مفارقة الموقف إلى الأنماط التالية:

١ـ التنافر البسيط: تتحقّق حين يكون تجاوراً بين أمرين يحكمهما تنافر شديد.

٢ـ مفارقة الأحداث: هناك تعارض بين ما نتوقّعه وما سيحدث.

٣ـ المفارقة الدرامية: تتحقّق عندما يعرف المراقب ما لا تعرفه الضحية.

٤ـ مفارقة خداع النفس: يكتشف الشخص على غير هدى ضعفه أو غفلته بما يقوم به وليس بما يحصل عليه.

٥ـ مفارقة الورطة: يكون ضمن التناقض الظاهري أو شكل الورطة والقضايا الشائكة.[١١]

إذن لم تكن المفارقة السياقية لغوية بل تشمل الموقف وكما تسمّى بمفارقة الموقف، إذ نرى المواقف متغيّبة في النص، غير مستقرّة والأحداث متعارضة، وهناك ثمة وسائط محذوفة، وكل هذه الصور نجدها في قصائد طالب عبدالعزيز المفعمة بالمفارقات السياقية، لاسيما في نصوصه التي شملت الطبيعة والزمان، حيث يرتبك الزمان في النص الشعري، والطبيعة تكون غير مألوفة، منفلتة من القصيدة، لتخلق نصّاً مغايراً يمكن تسميته بالمفارقة السياقية.

مفارقة الطبيعة عند طالب عبدالعزيز

الطبيعة هي من أهمّ العناصر التي اهتمّ بها الشعراء في الزمن القديم والحديث وقد وصفوها بصور مختلفة، ونرى بأنها أخذت حيّزاً مهمّاً في النصوص الأدبية وهناك من وصفها بشكل تقليدي، كما كان الشعراء يصفونها بشكل واقعي وباستعارات وتشبيهات قديمة. وهناك من استخدم تقنيات حديثة جداً، يجعل القارئ مشدوهاً أمام الصور المكثّفة ليتوقّف عندها، كما فعل الشاعر العراقي طالب عبدالعزيز.

بدأ الشاعر رحلته في الكتاب بتوظيف المفارقة عن طريق العنوان: "طريقان على الماء، واحد على اليابسة" فيترك القارئ ليكشف كمال الاتصال بين العبارتين عبر النص الشعري، كما أنّ رحلة الشاعر في هذا الكتاب بعد إثارة المفارقة تبدأ بصور الأماكن والمدن المزدحمة وتصوير الحياة والموت فيقول في قصيدته الأولى بعنوان السائر في جنازة أمسه:

«لا تحملوا جثتي إلى وادي السلام

الطريق إلى النجف جدّ طويل

دعوها رطبة، غضّة على الأنهار في أبي الخصيب»[١٢] (يمكن القول إنّ طالب عبدالعزيز استخدم **مفارقة الأحداث**، إذ هناك تعارض بين ما نتوقّعه وما سيحدث. يعبّر طالب عبدالعزيز عن الحياة بأنها تجربة وجودية مستقلّة ومقتبسة من أجزاء صغيرة، وهي منعزلة بخصوصيتها، متحرّرة من القديم كلحظة وجودية. فهو يتّصل بالحياة عبر هذه الخصوصيات فلم تكن بالنسبة إليه حتميّة، فيتهكّم في النص الذي ذكرناه بأنّه يريد من الناس أن يتركوا جثّته رطبة على الأنهار، فتحدث المفارقة، يا ترى هل يحملون الجثّة أم يتركونها، فهناك ثمة لغة مغايرة غير متكرّرة، كما يقول أدونيس: «هناك لغة مغايرة للمألوف ولغة مطهّرة من صدأ الاستعمال المتكرّر والاستخدام الثابت المشترك وبلا ريب فإن الثبات الذي لازم لغة الشعر العربي طويلاً حوّل النصوص الشّعرية إلى ما يشبه المقابر والأطلال الدارسة»١٣ فنجد مراوغة لفظية في النص الشعري، يمكن الوصول إليها عبر النصوص الأخرى بل نعرفها عن طريق البلابل والدبابير وصور الحياة المزدحمة إذ يقول طالب مستطردًا :

«البلابل تسمّي الصباحات لها
والدبابير أعرفها، تمرّ مسلّمةً
والأبقار تلطع الملح عن شاهدتي
فدعوني هنا»[١٤]

لم تزل **مفارقة الأحداث** سائرة في سياق القصيدة، إذ لا ندري هل سيبقى جثّة مرمية، أم سيحملونه نحو القبر؟ ويهتف الشاعر بأعلى صوته بأنه لا يريد أن يموت كمن ماتوا عبر الودائع: لا أثر عنهم، ولا أحد يعرفهم، و مثل من استخدموا الشعر بطريقة ميتة وجافّة، فلم تكن رطبة ولا تضجّ بالحياة، بل يريد أن يرقد أمام السياب وعبدالوهاب البياتي، ويكره من يريد قتله واعتباره كشخص تقليدي، فلم يعط لهم أيّ مبرّر، عبر النصوص الزاخرة بالصور المدهشة والرهيبة مما يصوّر لنا **مفارقة الورطة** إذ تشتبك القضايا. يؤكّد الشاعر بأنه لا يترك للقتلة أي مبرّر لقتله، ويجعل المتلقي متسائلاً يا ترى هل هو مقتول أم لا قائلاً:

«ذلك لأنّي أكرههم جميعاً
أولئك الذين ما تركت لهم مبرّراً لقتلي»[١٥]

يكشف في نهاية القصيدة عمّا قصده من كلمات كـ "رطبة" و"غضّة" لكن بعد أن أصابت القارئ غفلة، وكلا الأمران المراوغة والمغافلة يساعدان على جمال النص الشعري، لاسيما بعد اكتشاف نوايا الشاعر والوصول إلى المعاني المبطّنة.

كما نجد في قصيدة أريكة الأفسار البعيدة أنّه يأتي بسرد مكتنز بالدلالات الشائكة المتأرجحة بين الحياة والموت، الحضور والغياب وبين الصور المترادفة والمتضادة قائلاً:

«بيننا من قال بأن الحياةَ بمعان مبهمة هناك
"الحياةَ" قالَ، ولم يقل "الموتَ"»[١٦]

هنا استخدم الشاعر طالب **مفارقة خداع النفس** إذ يخلط بين الموت والحياة ليكشف لنا بشكل غير واعٍ، ضعفه أو جهله بما يقوله وليس ما يحصل له. لهذا لم يكن الزمن مطلقاً ولربما هناك من رحلوا لكنهم باقون وهناك من بقوا لكنهم راحلون، فلا تُوجد حالة زمنية مستقرّة في القصيدة، بل المفارقات الزمنية تنهال كانثيال الليل البهيم وهطول هواجر الشمس. وأحياناً تصبح اللغة جادّة وسط المفارقة الذهنيّة: فالكتابة الجادّة هي «إذا كانت ترتكز على رؤيا جديدة للعالم. ومن الخطأ نعتها بالتفرّد الحقيقي إلا إذا كانت تستند إلى لغة متفردّة تنحو نحواً غير مسبوق... فإنها تنشئ علاقات جديدة بين الكلمة والكلمة، وبين الكلمات والأشياء»١٧ فيقول طالب في قصيدة الأبواب:

«أفكّر بالذين يغادرون الفجر
وما هم بعمّال في الميناء
ينسلون خفافاً من الأغطية
لا وقع لمباهجهم
ويتوارون وما هم بعسس
بالذين لم يغادروا بعد
وقد غلبهم الأمل بالظلام»[١٨] ...
«أفكّر بليلهم الذي انقضى قصيراً
بالشمس عاريةً»[١٩]

يفتح طالب عبدالعزيز مساحة شاسعة في قصائده ليُفعمها بالأماكن والطرق، وللنظرية النسبيّة لآلبرت إينشتين تعريف مختلف بالنسبة للزمان فنجد أن «المكان والزمان يرتبطان ارتباطاً وثيقا بدلاً من أن يكونا منفصلين حيث يعد الزمن بعداً رابعاً للمكان»[٢٠]، في كلمات طالب لوحة زمنية مكتنزة **بالمفارقة الدرامية**، إذ يعرف المراقب ما لا تعرفه الضحيّة، فهو يعلم بالذين لا يغادرون وهم غير عالمين بما يجري لهم.

فيخرق المسافات بين الاسترجاع الزمني على أساس **مفارقة الأحداث**، ليكون تعارضاً بين ما نتوقّعه وما سيحدث لعائلته، وسط المنحنيّات الزمنيّة، فيقول في قصيدة صورة العائلة:

«الذي أبحر من الفاو إلى سومطرة
قبل ثلاثمائة سنة، جدّي لأبي
والذي تمزّقت غيمته في عدن
ومات عقابه هناك
هو عمّي الثالث عشر
أمّي التي حملها أبي في سفينته
من لاهور

هي التي فقدت قرطها على الطريق
قبل أن تموتَ في عبّادان»[٢١]

وتزدحم صور الطرق والمدن والقرى في قصيدة "سائقو الباصات"، فنجد كثافة في الأسماء وكل اسم له دلالة لمكان وزمان محدّدين على غرار **التنافر البسيط** فيقول:

«يقول حسين الحمداني: أنا و(طه البربوري) أوّل من ركب باص الخشب، عام واحد وأربعين وتسعمائة وألف
والمولود في (الزريجي) عام واحد وتسعمائة وألف
سبقنا على الطريق تلك إلى (أمّ النعاج)
...
أما عبدالباقي الكنعان فلم يسبقه أحد على الطريق
إلى أبي الخصيب من كوت الزين
حتى انقضت الخامسة والأربعين بعد التسعمائة وألف من القرن الماضي
يستوفي من الراكب معه أربع آنات
...
منذ عشرٍ ونيّفٍ أغلق حسين الحمدانيّ
باب قبره عليه، هناك، أقصى الرمل، بالزبير
حيث يقيم الحسن بن أبي يسار
أبو سعيد البصري»[٢٢]

هكذا يحاول طالب عبدالعزيز عبر الرمز والإيحاء أن يعبّر عن الأمكنة، ويبيّن من خلال الأسماء الزمن المعاش ليخلّد هذه الأسماء عبر الزمن العابر. لكنّه في نفس الوقت لا يعطي زمناً معيّناً لكل اسم، بل يتلاعب بالوقت، ويجعل القصيدة هي تختار الزمان بمفارقة سياقية لا فكاك منها وفي النهاية يريد أن يبيّن لنا الطبيعة والقضايا الحاكمة، ولكي نبيّن مدي تلاعبه بالزمن بمفارقات مختلفة، لا سيما المفارقة السياقية، سنخصّص مبحثاً مستقلاً لكشف هذه التقنية في النصّ الشعري.

مفارقة الزمان عند طالب عبدالعزيز

حين نقرأ عن المفارقة الزمنية التي يستخدمها طالب عبدالعزيز نشعر بأننا أمام سرد روائي، لكنّه بلغة شعرية ممزوجة بمفارقة ولغة خارجة عن المألوف، وسياق زمني غير متكرّر في البداية وكأننا نسترجع الأحداث ونستبقها عبر الكلمات المنحدرة في قصيدة النثر المتحرّرة.

تقول سيزا قاسم: «يترك الراوي مستوى القص الأوّل ليعود إلى بعض الأحداث الماضية، ويرويها في لحظة لاحقة لحدوثها. والماضي يتميّز أيضاً بمستويات مختلفة متفاوتة، من ماض بعيد وقريب، ومن ذلك نشأت أنواع

مختلفة من الاسترجاع: الاسترجاع الخارجي والاسترجاع الداخلي والاسترجاع المزجي، والمزجي هو ما يجمع بين الأمرين»[٢٣]

ما يميّز عبدالعزيز عن سائر الشعراء المعاصرين هو استخدامه للاستعارة بشكل مختلف. الاستعارة عند طالب عبدالعزيز في الحقيقة هي متّجهة نحو الطبيعة. تصوير الطبيعة عبر الاستعارة يحتاج إلى ترابط زمني فتختلط الأماكن بالأزمنة.

يقول في قصيدة المحمول أبداً إلى البساتين بعد أن يعود إلى الماضي ويصوّر الطريق المحفوف بالنخيل ويسرد ذكرى الأب والجد والآدم الأول:

«ما أغضبني الساعةَ
ما أقصاني عن شبابيك لا تروحُ ولا تجيءُ
منقطعاً في الريح التي تخور مذبوحة
أبحث في تراب منحسر، شحيح
عن قدم زائلة، تأبّدها الظلام»[٢٤]

نرى بأن الأحداث تمرّ ويبوح الشاعر بما حدث في نهاية الموقف إذ يسيّج الظلام كل شيء، لكن يحصل تعارض بين ما سيتوقّعه المتلقي وما سيحصل حقاً في القصيدة قائلاً:

«هذه الطريق لن تحفظ لي مُنقَلباً
أنا المحمول أبداً من هناك إلى البساتين»٢٥ وفي قصيدة أحدهم كانت يده مضيئة نرى وصف الأرض والطبيعة بكثافة تصويرية، وخصوبة الاستعارات والرموز والإيحاء عبر السرد المكتنز بالحياة الضاجّة بملامح الطبيعة قائلاً:

«أخطأت موضع الحجارة تلك
التي كنت أتخطّاها في النهار
أغصان غربٍ وخيال من سدرة هنا
سعفٌ وزوائدُ قصب
...
لم يفزعني طائر الظلمة التي كانت ترين
فتجاوزتُ الشجر والجداول والظلال إلى الباب
كانت الأبقار سوداء بما يكفي
في الظلام كذلك الأوز
وزوجا الأرانب البيضاوان
ظلّ النورُ هامداً هناك... في الأعالي»[٢٦]

لاشك بأن **لمفارقة الأحداث** دوراً كبيراً في هذا النص الشعري، ويجعل القارئ متأرجحاً بين ما يتوقّعه وما سيتفاجئ به في نهاية القصيدة إذ يقول:

«لا أعلم كم سحابة غطّت القمرَ الليلةَ تلك
قبل أن يصحبني أحدهم
كانت يده مضيئة بما يكفي
لأتبيّن طريقي إلى السرير»[٢٧]

يحاول طالب عبدالعزيز في كل قصيدة أن يجعل من الاستعارة والمجاز والرمز أدوات لتفسير ما يدور حوله، حتى تصبح الصورة الحقيقيّة منفلته، لا يُعرب عنها مباشرة، وتحصل مفارقة ذهنية مقصودة وغير مقصودة: مقصودة لتركض وراءها، خلف الحركة وغير مقصودة: تاركاً لك التأويل والتحليل. لتصبح قصائد طالب مختلفة وذلك عبر كلمات قليلة تقتحم النص كما في قصيدة "محمول أبداً إلى البساتين":

«أولئك الذين توهّمتهم الحكاياتُ مناجلَ وسماواتِ
عائدين قبل الغروب إلى بساتينهم؟»[٢٨] يتسائل القارئ لَمَ لَمْ يكن الشاعر سعيداً حيث الحكايات توهمتهم مناجل وسماوات. هل يقصد الشاعر من المناجل صور الهلال في السماوات حتى يعود أولئك إلى البساتين. بل يقصد العمل الاشتراكي الذي يدعو إلى مشاركة الجميع. وهنا تحصل **مفارقة الورطة**، وتزدحم الأسئلة إذ يعود المزارعون إلى البساتين قبل الغروب بدل أن يغادروا المزارع في هذا الوقت. وتحصل الورطة أحياناً في السياق لدرجة فائقة من المفارقة إذ يقول طالب في قصيدة قصب متعامد وباعة سمك مرحون قائلاً:

«ترك الجنود الكثير من ظلالهم على الماء
ورحلوا، بينهم أخي، كنتُ تعثّرت بجثّته هناك
ولأن الريح تمزّق أشرعة من لا أشرعة لهم..»[٢٩]

يا ترى كيف يترك الجنود ظلالهم فوق الماء ويرحلون وكيف تعثّر الشاعر على جثة أخيه الذي رحل مع الجنود؟ وهذه هي المفارقة السياقية التي يحاول طالب عبر استبدال التصاوير والمشاهد أن يعبّر عن عبثية الحرب ويجعل القارئ متسائلاً عن الوسائط المحذوفة، ليبحث عن الأشرعة الممزّقة لمن لا أشرعة لهم، يا ترى هل انفلتت الوسائط وسط الزمن أم في جانب من الطبيعة؟

هذه المفارقة الزمنية والمزج بين الاسترجاع والاستباق وكل هذه الاستعارات والرمز والمجاز، في الحقيقة هي التي تشكّل بؤر المفارقة، فلم تصل إلى مستوى دلالي مطلق، بل تحصل على تأويل وتحليل يختلفان عن تأويل وتحليل الآخر، وهنا يكمن سرّ جمال الشعر بإيقاعاته البيانيّة والمعنويّة، ويقول في قصيدة "الأرجوحة بين سعفتين":

«مرّ المساء ناحلاً على الإسفلت
وذهب الصباح
يشرب فنجانه الأخير»[٣٠]

لم تجد الزمن يأتي ويرحل بصورة مباشرة بل عبر الاستعارة التي أشرنا إليها، وهي خاصّة بالشاعر طالب عبدالعزيز، بوصفه الطبيعة بهذا الشكل: إذ يصف الطبيعة متأرجحة بين الماضي والحاضر والمستقبل مما يصعب عليك اكتشاف التسلسل الزمني في الوهلة الأولى، ويساعدك التأويل لتشعر بالترابط الزمني عبر النص الزاخر بانثيالات مبهمة ومتراشقة بين الأبعاد الدلاليّة وعبر **التنافر البسيط** الذي يحكم ظاهرتين أو أمرين مع التجاور الموجود بينهما.

يقول كذلك في قصيدة "الطين مرتفع عن الماء":

«ما كنتُ لأستيقظ باكراً
لو لا أن رأيت حائطه ينهار
...
وفزعاً رحت أمسك بالسقف
الذي انخسف عن عشرات النجوم»[٣١]

هنا تشتبك الأزمنة المتقاربة متأرجحة بين قبل وبعد الانهيار: يا ترى هل الشاعر يكون نائماً أم يقظاً حيث يريد لمس السقف، لكن لا شيء سوى النجوم. لذا يسخر الشاعر من انفلات الزمان ليلجأ إلى الفنتازيا، لكنه لم يبتعد عن صور المفارقة بلغة مكتنزة بالاستعارات **كمفارقة درامية** يعرف ما لا تعرفه الضحية.

كما في قصيدة زارع الظلال يقول:

«جاءني ببذور أزهار الشمس
والبلابل لما تكد تُفرد أجنحتها
قال: الوقت متأخّر لزراعة النخيل»[٣٢]

المفارقة هي بين الشمس والظلال، فكيف ببذور أزهار الشمس تزرع الظلال؟ فيترك طالب التأويل للقارئ كما أنه يحذف الوسائط. ربما حذف زهر عباد الشمس الذي ينمو ويشكّل الظلال أو هناك قراءات يمكن اقتباسها من النقيض الموجود بين الشمس والظلال.

يمكن أن نعتبر الشاعر عبدالعزيز بأنه شاعر الطبيعة والوطن والحب والزمن، الحب الذي تجده طيّ كل حدث وكل كلمة يقولها.

الخاتمة

من خلال البحث تبيّن لنا بأنّ الشاعر طالب عبدالعزيز قد استخدم المفارقة بصورة حديثة، وسبق الكثير من الشعراء في إعطاء نماذج مغايرة للمكان والزمان في النص الشعري وتوصّلنا إلى هذه النتائج:

- قصائد الشاعر طالب عبدالعزيز مكتنزة بالمفارقة الشعرية الحديثة لاسيما المفارقة السياقية.
- تلاعبَ طالب عبدالعزيز باللغة الشعرية فاستخدم المراوغة اللفظية والمغافلة ليميّز كتاباته عن الكتابات العادية المباشرة.
- لم تكن كتابات طالب عبدالعزيز مباشرة بل اكتنزت بالسرد ورواية الأحداث بحبكة زمنيّة مما نرى السرد في القصيدة يتأرجح بين الاسترجاع الزمني والاستباق الزمني.
- يمكننا أن نعرّف الشاعر طالب عبدالعزيز من خلال دراستنا بأنه شاعر الطبيعة والزمان والحب والمكان.
- استخدم طالب عبدالعزيز في مفارقاته الشعرية تقنية الرمز والإيحاء والإشارة والفاتازيا، مما ساعدت هذه التقنيات في تدشين المفارقة الشعرية بصورة مكتملة.

الهوامش

١) مدخل إلى علم الدلالة لفرانك برالمر: ١٤٤
٢) ينظر: المفارقة وصفاته لسي. دي ميويك: ١٣٩
٣) بناء القصيدة العربية الحديثة لعشري زايد علي: ١٣٠
٤) عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر لكمال أحمد غنيم: ٢٣٨
٥) مفارقة العنوان في قصص زكريا تامر لأرشد يوسف عباس: ٢
٦) ينظر: المفارقة وصفاته لسي. دي ميويك:٣٣
٧) بناء المفارقة في المسرحية الشعرية لسعيد شوقي: ٧٤
٨) المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة لمحمد العبد: ١٧
٩) المفارقة لنبيلة إبراهيم: ١٣٩
١٠) بناء المفارقة في المسرحية الشعرية لسعيد شوقي: ٥٩
١١) ينظر: المفارقة وصفاته لسي. دي ميويك: ١٨٩-١٩٢
١٢) ديوان طالب عبدالعزيز: ٩
١٣) ينظر زمن الشعر لأدونيس: ١٦٨
١٤) ديوان طالب عبدالعزيز: ٩
١٥) المصدر نفسه: ١٠
١٦) المصدر نفسه: ١٤
١٧) ينظر زمن الشعر لأدونيس: ١٨٦
١٨) ديوان طالب عبدالعزيز:٢٢
١٩) المصدر نفسه: ٢٣

٢٠) فكرة الزمن عبر التاريخ لكولن ولسن: ١٥٨
٢١) ديوان طالب عبدالعزيز: ٢٢
٢٢) المصدر نفسه: ٣٣
٢٣) بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ لسيزا قاسم: ٤٠
٢٤) ديوان طالب عبدالعزيز: ١٢
٢٥) المصدر نفسه: ١٢
٢٦) المصدر نفسه: ٣٧
٢٧) المصدر نفسه: ٣٧
٢٨) المصدر نفسه:.
٢٩) المصدر نفسه:.
٣٠) المصدر نفسه: ١٧.
٣١) المصدر نفسه: ٢٤.
٣٢) المصدر نفسه: ٣٤.

المصادر والمراجع

-إبراهيم، نبيلة، المفارقة، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان الثالث والرابع، القاهرة، ١٩٨٥م.
-غنيم، كمال أحمد، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.
-أدونيس، زمن الشعر، الطبعة الثالثة، دار العود، بيروت، ١٩٨٣م.
-أدونيس، الصوفية والسريالية، الطبعة الأولى، دار الساقي، بيروت،١٩٩٢م.
-بالمر، فرانك، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة: خالد محمود جمعة، مكتبة ودار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٧.
-حمودة، عبدالعزيز، المرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، سلسلة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، رقم٢٧٢، الكويت، ٢٠٠١.
-سي. دي ميويك، المفارقة وصفاتها، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي، رقم ١٣، سلسلة الكتب المترجمة (١٢) بغداد العراق، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة، ١٨٨٢م.
-سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- شوقي، سعيد، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، ط١، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٩٤م.
-عباس، أرشد يوسف، مفارقة العنوان في قصص زكريا تامر، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، م ٦، عدد ٢، ٢٠١١م.
-عبدالعزيز، طالب، طريقان على الماء، واحد على اليابسة، دار مسارات، الكويت، ٢٠١٦م.
-العبد ، محمد، المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
-عشري زايد، علي، بناء القصيدة العربية الحديثة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
-ولسن، كولن، فكرة الزمن عبر التاريخ، ترجمة فؤاد كامل، المجلس الوطني للثقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢م.